مقدمـــــة

فى الكتاب الحالى ننهج النهج نفسه الذى نهجناه فى كتابنا السابق (التعليم والتنشئة السياسية) ، من حيث اختيار عنوان أحد المقالات لتكون عنوانا للكتاب كله ، على الرغم من أنه يجمع بين دفتيه عشرات المقالات متعددة الأغراض مختلفة الموضوع ، دون أن يعنى ذلك افتعالا فى العنونة ، إذ مهما تنوعت موضوعات الكتاب واختلفت ، لكنها فى مجملها العام تشير وتؤكد على مجموعة من المعانى والقيم تعكس نبض الواقع التربوى والثقافى والسياسى ، كما تعكس فى الوقت نفسه شخصية الكاتب من حيث نهجه وتفكيره وخبراته وتوجهاته وميوله .

لكننى فى الوقت نفسه أشعر بأن الموضوع الذى كان يستحق أن يختص هو بعنوان الكتاب ، تلك السلسلة من المقالات التى نشرت على مدى سبعة عشر أسبوعا على صفحات جريدة (آفاق عربية) بعنوان (فرعون التعليم فى مصر) .

وأصارح القارئ ، أن مثل هذا العنوان ربما يسبب مشكلات للمطبعة التى يطيع بها الكتاب ، وكذلك الناشر ، صحيح أن العنوان استخدم طوال عدة أسابيع على صفحات جريدة كانت توزع بعشرات الألوف من النسخ ، بينما الكتاب ، لا يزيد توزيعه عن بضع مئات ، لكن الصحف تحيط بها ظروف أفضل من الكتب على الرغم مما قد يتصوره البعض من أن العكس هو الصحيح .

وفضلا عن ذلك ، فإننى - كما سوف يقرأ فى الأجزاء الأخيرة من سلسلة (فرعون التعليم فى مصر) - قد سئمت وملت التحدث فى هذا الموضوع ، فقد امتلأ الكوب عن آخره وما عادت له طاقة لمزيد .

وقراءة موضوعات الكتاب ، من خلال أقسامه الأربعة : التعليم العام - التعليم الجامعى والأزهرى - الثقافة - السياسة ، تظهر للقارئ أن لا حواجز بينها ، فكل منها يتصل بالآخر يتأثر به ويؤثر فيه ، فالتعليم العام هو الذى يمد العالى بالطلاب الذين يعدهم ، ووفق ما يكونوا عليه من كفاءة تتشكل العملية التعليمية فى التعليم العالى ، والتعليم العالى يمد التعليم العام بأجهزته الفنية والإدارية التى تسيره وتتحكم فيه وتوجه ، وهذا وذاك تحكمه قيم وعادات وأساليب تشيع فى الثقافة المصرية ، وفى كل هذا وذاك تقف السياسة لتكون المهيمن والمسيطر ، خاصة فى عالمنا العربى ، على عكس ما نجد فى الدول المتقدمة .

ففى الدول المتقدمة تتحدد وظيفة " الساسة " فى أن يكون " خدما " للأمة ، فهى التى تختارهم وفق ما يكونون عليه من قدرة على خدمة أهداف الأمة ، ولذلك تصبح مؤسسات المجتمع بمختلف أشكالها وصورها هى الحاكم الحقيقى ، بينما فى العالم العربى لا تسير الأمور وفق هذا النهج ، فكيفما يكون الحاكم لابد أن يكون التعليم ، وتكون الثقافة .

وأنا أعتذر مقدما للقارئ ، إذ سوف يلمس لدى قراءته حدة فى الأسلوب ، ونبرة احتجاج مستمرة ، وما يشبه الصراخ والعويل ، لدرجة أن البعض يتهموننا بعدم الإنصاف ويتساءلون : ألا ترى أمامك طاقة نور ؟ هل كل ما قام ويقوم مشبع بالسلبيات والقصور ، ولا تجد إيجابية ما ؟

وهو تساؤل منطقى الشكل ، لكن قياسه وفق ظروف أمتنا يظهر عكس ذلك ، فأولا لابد ألا ننسى المقولة الشهيرة بأنه لا شكر على واجب ، أى لا لزوم للإشادة بما يسمى منجزات لأنها " واجبات " مفروضة ، بل قل ، هى ربما تقل عن الحد الأدنى الواجب . ثانيا ، فإن مثل هذا المتسائل عليه أن يقيس الحجم الزمنى لما تذيعه مختلف أجهزة الإذاعة والتلفزيون ، والحجم الورقى لهذا الكم الكبير من الصحافة الرسمية ، وهنا فسوف يجد أنه متخم بالمديح والإشادة ، أو على أقل تقدير " ساكت " عن كثير من الأمور ، بينما الصوت الآخر المخالف " محصور " فى بقعة تعد ذرة بالقياس إلى الحجم المهول للأجهزة الرسمية ، أو قطا صغيرا أمام فيل ضخم ، مما يدفعه دفعا إلى أن يكتب هذا الذى يكتب ويقول .

على أية حال نحن لا نزعم أننا على صواب ، ولكن هذا الذى قدرنا عليه فى حدود ما منحنا الله من قدرة وطاقة ، فإن كنا قد أخطأنا فإن ما يغفر لنا أن خير هذه الأمة هو الذى يحكم ما نكتب ، وليس خيرا شخصيا .

وبالله التوفيق .